ISSN 1111-5203 -EISSN2600-6596

قيمة العقل والعلم عند الغزالي

د. بلعسل ناصر
جامعة الجزائر (2)

تاريخ الإرسال:9-05-2018 تاريخ القبول:08-07-2018
تاريخ النشر:02-12-2018

ملخص:
يبدو أن فكر الغزالي مزيج من علوم شتى صقلها التفكير وأضفتها تجاربه العلمية. فقد كان الغزالي رجلا متعطشا إلى معرفة كل شيء، فكان دائرة معارف عصره، ونال لقب حجة الإسلام ومجدد الأمة.
لكن أهمية الغزالي ليست في معرفته الموسوعية، فكم من موسوعيين في التاريخ لم يتبؤوا مكانة الغزالي في عقول المسلمين ومشاعرهم، ولم يفوزوا بلقب حجة الإسلام.
والغزالي-كما يبدو- واحد من أكبر مفكري الإسلام، ولعله أقربهم إلى الابتكار. فآراءه في التربية والتعليم وحدها يمكن أن تعتبر تجديدا مهما في وضع قواعد سلوكية للمريدين وطلبة العلم فهو من القائلين بأن التربية يجب أن تتناول العناصر الثلاث الروح والعقل والجسم في عملها وأن إهمال واحد من هذه العناصر ينتج عنه نقصا في التربية، وقد ينتقل أثره إلى العنصرين الآخرين. ومهما تكن الآراء التي قيلت عن الغزالي مختلفة فإن الجميع متفقون على مكانته في شؤون المعرفة ورسوخ قدمه فيها.
الكلمات المفتاحية: العلم، العقل، الإلهام، الوحي، الشك، اليقين، الحقيقة.

Abstract:
Alghazali thought is a mixture of various sciences refined by his own thought, and his scientific experiences. He was a thirsty man of all knowledge, so he was the Encyclopedia of his time. He was called the " Argument of Islam", and the "Renovator of the Umma".

Alghazali is one of the main Islamic thinkers , and perhaps the most creator of them. His ideas on education and didacticism, may be, represented an important renew in the founding of behavior rules . He proposed that education must deal with three parts : The Soul, the Mind and the Body. The neglecting of any part produces a failure in the education , and it may affected the other parties.
Whatever , it was said on Alghazali , there is a consensus that he was a pioneer in many fields of knowledge.

Al Ghazali attacked harshly the Philosophers, but while he attacked them he used their methods. As a result some studies consider him a theologian and others a philosopher.

مقدمة:

عُرف الغزالي بحملته الشديدة على الفلسفة، ولكنه وهو بصدد الرّد عليهم، كان لابد له أن يتبنى أساليبهم. وهذا ما جعل بعضهم يرى فيه متكلما من متكلمي الاسلام، وآخرون رأوه فيلسوفا. وهو ما يعني أن الغزالي كان فيلسوفا فضلا عن كونه متكلما، فأي نوع من الفلاسفة كان؟ إذا أمعنا النظر في فلسفته، وجدنا أنه اتخذ الفلسفة سلاحا للدفاع عن الدين. وهذا واضح خاصة إذا عرفنا أن علم الكلام هو في أصله نظرية في الدفاع عن العقيدة.

فهو يريد هدم الفلسفة بأساليب الفلسفة ذاتها. ولكن الفلسفة متسلحة بالعقل، فهل بإمكانه هدم العقل؟ وإذا هو أراد ذلك، فبأي شيء يهدمه؟ كان لابد في سبيل بلوغ هدفه، أن يضع نظرية في العقل تحد من قيمته، وتجعله معتمدا على الشرع.

ومن الملامح الفكرية عن الغزالي أن الشك عرض له في وقت مبكر، وكان شكه صاحب فضل عليه، لأنه هو الذي دفعه إلى البحث وطلب الحقيقة وتلمس الإيمان، فدرس كل العلوم الدينية و المذهبية الموجودة في عصره[1].

ونستطيع أن نستعرض المراحل الفكرية التي مر بها الغزالي في حياته، فنجد أولا المرحلة التي سبقت شكه، وفيها كان يطلب العلم، ويكوّن شخصيته الفكرية ثم المرحلة التي ظهر فيها الشك، وقد جاءه الشك خفيفا، ثم اشتد وقوي بعد ذلك، وتلك المرحلة طالت وامتدت، ثم المرحلة التي أعقبت الشك، وهي مرحلة الهدوء واطمئنان والوقوف على الحقيقة عن طريق التصوف، ثم مرحلة التأمل و التدبر على انفراد في أثناء عزلته بدمشق وبطوس، ثم مرحلة العودة إلى عرض ما يعلم ويرى عن طريق التدريس والتوجيه الديني، ثم مرحلة الممارسة للتصوف، و الزهد في أواخر أيامه بطوس[2].

إن شرف العلم وأهميته له دلالة كبيرة عند الغزالي، حيث يقول: "فاعلم أنَّ العلم شريف بذاته من غير النظر إلى جهة المعلوم، حتى إنَّ علم السحر شريف بذاته وإنْ كان باطلاً، وذلك أنَّ العلم ضد الجهل، والجهل من لوازم الظلمة، والظلمة من حيز السكون، والسكون قريب من العدم، فالجهل حكمه حكم العدم، والعلم حكمه حكم الوجود"(3)

فالعلم هو الوجود وهو الحياة، وأنه شريف في ذاته، لأنَّ به قوام الوجود، وديمومة الحياة التي تتصل بخيوطه مع الآخرة. وهنا تكمن ضرورته وأهميته. أحدهما شرعي، والآخر عقلي. وأكثر العلوم الشرعية عقلية عند عالمها، وأكثر العلوم العقلية شرعية عند عارفها .

بهذا العمق الفلسفي يشرح أقسام العلم، حيث قسَّمه إلى شرعي وعقلي، وكلاهما مرتبط بالآخر، فأكثر العلوم الشرعية عقلية، لأنها توافق صريح العقل ولم يخاطب إلاَّ العقلاء، وكذلك العلوم العقلية فإنَّ أكثرها شرعية، لأنها مما ينفع الإنسان في دنياه، والشرع يحث على إعمار الدنيا وإثابة من يقوم بواجب العمل فيها قاصداً وجه الله تعالى.

وبعد تقسيمه العلم إلى شرعي وعقلي؛ أخذ في تفصيل أقسامهما، فبدأ بالشرعي وقسَّمه إلى قسمين:

الأول: في الأصول، وهو علم التوحيد.

والآخر: علم الفروع.

والعلم الشرعي إما أنْ يكون علميَّاً أو عملياً. علم الأصول هو العلمي، علم الفروع هو العملي.

والعلم العملي يشتمل على ثلاثة حقوق:

الأول: حق الله تعالى "أركان العبادات".

والثاني: حق العباد "أبواب العادات" مثل: البيع، والقصاص.

والثالث: حق النفس "علم الأخلاق"[4].

فأما قوله: "علم الأصول هو العلمي، وعلم الفروع هو العملي"، فلأنَّ علم الأصول ثابت لا يتغيَّر، ومعرفته لم تأت بالاكتساب ولكن بخبر السماء "الوحي"، فصدَّقه الناس واعتقدوا فيه، فلا سبيل فيه إلى اجتهاد أو تغيير، لذلك تظل عقيدة الإسلام ثابتة لا يطرأ عليها تغيير ولا تبديل. وأما العلم العملي "علم الفروع" فهو فرعيات تتعلق بحقوق العباد، والاجتهاد فيها وارد فيما يتحمله النص.

وسُمِّيَ علم الفروع عملياً لأنه هو فقه الحياة الذي يتعلق بحركتها المتجددة، وظروفها المتغيّرة، التي تتطلب العمل الدؤوب، فإنَّ علم الفروع يتجدَّد مع الحياة محتفظاً بأصوله، ومسايراً لحركتها باستيعاب تام، دون أنْ يؤدي ذلك إلى تحليل حرام أو تحريم حلال.

فحتى أركان العبادات التي هي حق الله تعالى وتصنَّف من ضمن علم الفروع فهي عملية، لأنَّ الإنسان يزاولها بجوارحه، وهى التي تكسب الحياة طمأنينة ويقيناً.

فبعد أنْ فرغ أبو حامد الغزالي من أقسام العلم الشرعي تناول بالتقسيم مراتب العلم العقلي، حيث قسمه إلى ثلاث مراتب:

المرتبة الأولى: العلم الرياضي.

المرتبة الثانية: العلم الطبيعي.

المرتبة الثالثة: النظر في الوجود وتقسيمه إلى الواجب والممكن[5].

هذا الترتيب المتسق للعلم الشرعي والعقلي ينبئ عن عقلية فذة، وبعد فكرى عميق، وإحاطة واسعة بالعلوم والمعارف الفنية، أسهمت في بروز منهجية أصبحت مورداً خصباً لمناهج البحث الحديث. إن الغزالي بهدمه الفلسفة قد غدا فيلسوفا، ولكن بمعيار آخر ومن منطلق آخر. لم يعد تابعا، بل أصيلا مستقلا، وأنه فيلسوف و إن لم يرد أن يكون فيلسوفا.

وقد رأى كثير من علماء المسلمين قديما أن الغزالي رغم حربه على الفلسفة لم يزل متأثرا بها، وحسبنا أن أحد دعائم الفلسفة وهو المنطق، قد تبناه الغزالي ودافع عنه، وأضفى عليه من ثقافته الإسلامية، وكتب فيه عدة كتب (معيار العلم) و(القسطاس المستقيم)، وجعله مقياسا لصحة العلوم كلها، حتى علوم الدين نفسها، وذهب إلى أن من فقد هذا المعيار لا ثقة بعلمه، حتى جلب عليه سخط كثير من علماء المسلمين في مختلف المدارس والعقليات.

وهكذا يمكن القول أن الروح التي سادت فلسفة الغزالي، هي نفسها الروح التي سادت نظريته في العقل والعلم. فكما كان قصده الأول من فلسفته تهديم المذاهب الفلسفية المنافية للدين، كذلك كان قصده من نظريته في العقل، الحد من قيمته، التي كانت تلك المذاهب تعلي من شأنها، في سبيل إلحاقه بالشرع ضمن حدود معينة. فكأنه لمس أنه لا يستطيع القضاء على ثقة الناس بتلك المذاهب الفلسفية، إلا إذا حد من ثقتهم بالعقل نفسه، من حيث هو أداة تحصيل اليقين .

مرّت أزمة الشك عند الغزالي بثلاث مراحل: مرحلة الشك بالعقائد الموروثة، ومرحلة الشك بالمحسوسات، ومرحلة الشك بالمعقولات. أما نقطة البداية أنه كان نهما إلى المعرفة، وقد لازمه منذ راهق البلوغ قبل العشرين، حتى أنافت سنه على الخمسين، وهو يقتحم لجة هذا البحر العميق،

ويخوض غمرته خوض الجسور، لا خوض الجبان الحذور. مكتسبا معارف كان يحصلها من مذاهب الباطنية والفلسفة والكلام والتصوف[6].

وطبيعي في من يريد أن يتعرف كل هذه الأمور، أن يجد فيها الشتات والتناقض، فانحلت عنه رابطة التقليد، وانكسرت عليه العقائد الموروثة، فيعتقد أنها تلقينات لقنه إياها الوالدون والأستاذون[7].

غير أن هذا البحث الذي قام به، لم يكن دون طائل، بل كان نتاجه أن أخذ بالبحث عن حقيقة العلم، وبعد التأمل وصل به تفكيره إلى قاعدة الانكشاف[8].

ولا يكاد يضع لنا هذه القاعدة، حتى يبين أهميتها في اكتساب اليقين، فيقول: " فإني إذا علمت أن العشرة أكثر من الثلاثة، فلو قال لي قائل : لا، بل الثلاثة أكثر، بدليل أنني أقلب هذه العصا ثعبانا، وقلبها، وشاهدت ذلك منه، لم أشك بسببه في معرفتي، ولم يحصل لي منه إلا التعجب من كيفية قدرته عليه، فأما الشك فيما علمته فلا "[9].

وبهذا وضع يده على المعيار الذي سيستخدمه في الفحص عن صدق علومه، فحاول تطبيقه عليها. وبهذا يقول: "ثم فتشت عن علومي، فوجدت نفسي عاطلا من علم موصوف بهذه الصفة، إلا في الحسيات والضروريات. فقلت: الآن، بعد حصول اليأس، لا مطمع في اقتباس المشكلات إلا من الجليات، وهي الحسيات والضروريات "[10].

ولكنه بعد تركيز النظر، وجد أنه لا يمكن الثقة في المحسوسات، فانتهى به التشكيك إلى أن لم تسمح نفسه بتسليم الأمان في المحسوسات أيضا، وأخذ يتسع هذا الشك فيها[11].

وهنا عاد الغزالي إلى قاعدة الانكشاف، فحدها تحديدا عقليا خالصا، وبناها على مبدأ عدم التناقض، فقال: إن النفي والإثبات لا يجتمعان في شيء واحد، ثم ما لبث أن أعطى هذا المبدأ صورا تطبيقية مختلفة، مثل: "والشيء الواحد لا يكون حادثا قديما، موجودا معدوما، واجبا محالا، بل لقد أعطاه بالإضافة غلى ذلك، صورة رياضية خالصة، حينما قال:"العشرة أكثر من الثلاثة "[12]. وبذلك جعل من مبدأ عدم التناقض حكما في الأمور الحسية والعقلية معا.

بيد أن المنطق الذي اتبعه الغزالي، تمادى به إلى أبعد نتائجه. فإذا بالعقليات نفسها محل اتهام، وإذا بالغزالي يجد أن المحسوسات تقول له: "بم تأمن ألا تكون ثقتك بالعقليات كثقتك بالمحسوسات، وقد كنت واثقا بين فجاء حاكم العقل فكذبني، ولولا حاكم العقل لكنت تستمر على تصديقي، فلعل

وراء إدراك العقل حاكما آخر، إذا تجلى، كذب العقل في حكمه، كما تجلى حاكم العقل فكذب الحس في حكمه"[13].

وعلى هذا النحو يفقد الغزالي ثقته بنفسه، ويحاول أن يجد لذلك علاجا، فلا يتيسر له ذلك، إلى أن يمن الله عليه بنوره، يقول: "حاولت لذلك علاجا، فلم يتيسر، إذ لم يكن دفعه إلا بالدليل، ولم يمكن نصب دليل إلا من تركيب العلوم الأولية... فأعضل هذا الداء، ودام قريبا من شهرين، أنا فيهما على مذهب السفسطة بحكم الحال، لا بحكم النطق والمقال، حتى شفاني الله من ذلك المرض... ورجعت الضرورات العقلية مقبولة موثوقا بها على أمن ويقين، ولم يكن ذلك بنظم دليل، وترتيب كلام، بل بنور قذفه الله تعالى في الصدر، ذلك النور هو مفتاح أكثر المعارف...فمن ذلك النور ينبغي أن يطلب الكشف، وذلك ينبجس من الجود الإلهي، في بعض الأحايين "[14].

قيمة طرق العلم:

ليست طرق العلم إلا القياس والاستقراء والتمثيل. حيث يرى أن التمثيل لا يكون صحيحا، إلا إذا اضمر وراءه قياسا ما، وأن القياس يستمد قيمته من المقدمات التي يجب أن تكون مأخوذة من العلوم الأولية الضرورية. ولما كانت قيمة هذه المقدمات تستمد من عملية الاستقراء، التي هي نتيجة لها، كان لابد للقياس من أن يستمد قيمته من الاستقراء. لهذا، لابد لنا معرفة رأي الغزالي من هذه الطرائق العقلية .

التمثيل:

ومعناه " أن يوجد حكم جزئي معين واحد ، فينتقل حكمه إلى جزئي آخر، يشابهه بوجه ما.ومثاله في العقليات أن نقول: أن السماء حادث، لأنه جسم، قياسا على النبات والحيوان وهذه الأجسام التي يشاهد حدوثها "[15].

ومعنى هذا، أننا نلاحظ أن النبات حادث وهو جسم، فنقيس السماء عليه، فنرى أنهما يتشابهان معا بالجسمية، فنستخلص أنه لابد لهما من أن يتشابها بالحدوث أيضا. وهذا غير صحيح حسب الغزالي "ما لم يمكن أن يتبين، أن النبات كان حادثا لأنه جسم، وأن جسميته هي الحد الأوسط للحدوث، فإن ثبت ذلك، فقد عرفت أن الحيوان حادث، لان الجسم حادث"[16].

فالغزالي يريد أن يرد الاستدلال بالتمثيل إلى القياس، على النحو التالي: كل جسم فهو حادث، السماء جسم، السماء حادث[17]. إن العقل ينتقل هنا من حكم كلي هو حدوث الجسم في هذا المثال إلى حكم جزئي، وهو حدوث السماء. ولا ننتقل من حكم جزئي هو حدوث النبات، إلى حكم جزئي، هو حدوث السماء. إن الشاهد المعين وهو جسمية النبات والسماء، قد سقط ولم تعد له أية قيمة، وأن التمثيل من خلال ذلك، لا قيمة له، وقد يخطئ، أما إذا ما أصاب، فلأنه يخفي وراءه قياسا من الأقيسة.

القياس: يطلق عليه الغزالي اسم " مناهج الأدلة" حينا، واسم "موازين المعرفة" حينا آخر. التسمية الأولى نجدها في كتابه" الاقتصاد في الاعتقاد"، في حين نجد التسمية الثانية في كتابه "القسطاس المستقيم".

فكتابه القسطاس المستقيم، محاورة جرت بين الغزالي وبين واحد من أهل التعليم، حيث نجد محاور الغزالي يسأله: "بماذا تزن معرفتك؟ ...فيجيب الغزالي: "أزنها بالقسطاس المستقيم، ليظهر لي حقها من باطلها، ومستقيمها من مائلها، اتباعا لله تعالىن وتعلما من القرآن المنزل على لسان نبيه الصادق، حيث قال: زنوا بالقسطاس المستقيم". فلما سأله محاوره:" وما القسطاس المستقيم؟ " أجابه :"هي الموازين الخمسة التي أنزلها الله تعالى في كتابه، وعلم أنبياءه الوزن بها. فمن تعلم من رسل الله، ووزن بميزان الله، فقد اهتدى، ومن عدل منها إلى الرأي والقياس، فقد ضل"[18].

يرى الغزالي أن هذه الموازين (ميزان التعادل، وميزان التلازم، وميزان التعاند) كما وردت في كتاب " الاقتصاد في الاعتقاد" حتى تكون صحيحة، لابد من استخدام معيار ثابت لها، وهي العلوم الأولية الضرورية المستفادة من الحس والتجربة أو غريزة العقل[19].

ومعنى هذا، أن كل قياس – ميزان المعرفة – ينبغي أن يبنى على مقدمة تجريبية أو حسية أو عقلية، لكي يكون من الممكن الوثوق بنتيجته[20].

الاستقراء: يعرف الغزالي الاستقراء بقوله: "هو أن تتصفح جزئيات كثيرة داخلة تحت معنى كلي، حتى إذا وجدت حكما في تلك الجزئيات، حكمت على ذلك الكلي به"[21]. فما قيمة هذا النوع من الاستدلال، في نظر الغزالي؟

حيث يقول: "وهذا الضرب من الاستدلال غير منتفع به في هذا المطلوب فأنا نقول: هل تصفحت في جملة ذلك، فاعل العالم؟ فان تصفحته ووجدته جسما، فقد عرفت المطلوب، قبل أن تتصفح الاسكاف والبناء ونحوهما، فاشتغالك به اشتغال بما لا يعنيك، إن لم تتصفح فاعل العالم، ولم تعلم حاله، فلم حكمت بأن كل فاعل جسم؟وقد تصفحت بعض الفاعلين، ...فلا يعرف بمقدمة تبنى على التصفح"[22].

ومعنى هذا أن الاستقراء لا يمكن الاعتماد عليه، في تحصيل اليقين، إلا إذا كان تاما. ولكنه في هذه الحالة بالذات، جهد لا طائل وراءه، إذ يكفي أن نبدأ بتصفح المطلوب، حتى لا نحتاج إلى عملية الاستقراء كلها. وهذا ينتهي إلى أن العلم المحصل بهذه الطريقة، لا يصلح أن يستخدم مقدمة في قياس، وأن تكون هذه المقدمة كلية لا جزئية، مثل : كل حيوان يحرك عند المضغ فكه الأسفل ، التمساح حيوان، التمساح يحرك عند المضغ فكه الأسفل"[23].

هذا رأي الغزالي، وكأنه يرى أن هناك تجاوزا لعملية تصفح الجزئيات في الحكم الناتج عن عملية التصفح. فقد شملت هذه العملية بعض الحيوان، في حين أن الحكم أتى شاملا كل أنواع الحيوان. ولهذا فقد الاستقراء قيمته. وعلى هذا النحو ، يجد العقل نفسه في اعتماده على طرائقه الثلاث، أمام هذا الفضاء الواسع، وقد أضاع معالم الطريق إلى الحقيقة.

قيمة العقل:

يقول الغزالي: "اعلم أن العقل لن يهتدي إلا بالشرع؛ والشرع لم يتبين إلا بالعقل. فالعقل كالأس ، والشرع كالبناء. ولن يغني أس ما لم يكن بناء، ولن يثبت بناء ما لم يكن أس. وأيضا، فالعقل كالبصر، والشرع كالشعاع، ولن يغني البصر ما لم يكن شعاع من خارج، ولن يغني الشعاع ما لم يكن بصر...وأيضا، فالعقل كالسراج، والشرع كالزيت الذي يمده. فما لم يكن زيت، لم يحصل السراج، وما لم يكن سراج، لم يضئ زيت...فالشرع عقل من خارج، والعقل شرع من داخل، وهما متعاضدان، بل متحدان"[24].

من خلال هذا القول نلاحظ أن العقل والشرع وجهان مختلفان لحقيقة واحدة، فهما يؤلفان شيئا واحدا حسب الغزالي، ونستطيع تشبيههما بوجهي قطعة النقد.كل وجه يعطي صورة عن قطعة النقد مخالفة للصورة التي يعطيها الوجه الآخر، لكنهما يدلان معا على حقيقة واحدة...

ومع ذلك هناك فروق في المعرفة يحصلها كل من العقل والشرع. يقول الغزالي: "إن العقل قليل الغناء، لا يكاد يتوصل إلا إلى معرفة كليات الشيء، دون جزئياته، نحو أن يعلم جملة حسن اعتقاد الحق، وقول الصدق، وتعاطي الجميل، وحسن استعمال المعدلة، وملازمة الفقه، ونحو ذلك...من غير أن يعرف ذلك في شيء شيء. والشرع يعرف كليات الشيء وجزئياته ويبين ما يجب أن يعتقد في شيء شيء، وما الذي هو معدلة في شيء شيء "[25].

ومعنى هذا أن معرفة الشرع أتم من معرفة العقل، فالشرع يعرف الكليات والجزئيات، في حين أن العقل لا يعرف إلا الكليات . ولذلك كان لابد من تطابق العقل والشرع في القضايا الكلية، ولابد من لجوء العقل إلى الشرع في الأمور الجزئية. فكان الشرع عقل أعلى مرتبة من مرتبة العقل ذاته؛ فإذا اتحدا معا، أصبحا عقلا واحدا، لا يمكن أن يتطرق إليه الخطأ. أما إذا انفصلا، فالعقل عرضة للخطأ في مجال الأمور الجزئية.

بيد أننا إذا توقفنا عند هذا الحد من عرض رأي الغزالي في قيمة العقل، لا نكون وفيناه حقه من الإنصاف، إذ الشرع شأنه شأن العقل بحاجة إلى مبدأ يستمد منه قيمته، كما هو بحاجة إلى مصدر يستمد منه معينه، وإذا عادت الثقة إلى العقل بفضل النور الذي قذفه الله في الصدر فإن الشرع بحاجة أيضا إلى مثل هذا النور.يقول الغزالي: "إن العلوم التي ليست ضرورية ...تختلف الأحوال في حصولها، فتارة تهجم على القلب، كأنه ألقي فيه من حيث لا يدري، وتارة تكتسب بطريق الاستدلال والتعلم. فالذي يحصل لا بطريق الاكتساب وحيلة الدليل، يسمى إلهاما، والذي يحصل بالاستدلال يسمى اعتبارا واستبصارا. ثم الواقع في القلب بغير حيلة وتعلم واجتهاد من العبد، ينقسم إلى ما لا يدري العبد أنه كيف حصل له، ومن أين حصل؟ وإلى ما يطلع معه على السبب الذي

استفاد منه ذلك العلم، وهو مشاهدة الملك الملقى في القلب. والأول يسمى إلهاما ونفثا في الروح، والثاني يسمى وحيا، ويختص به الأنبياء، والأول يختص به الأولياء والأصفياء"[26].

ومعنى هذان أن العلوم قسمان في رأي الغزالي: ضروري وغير ضروري. أما الضروري فقد نفضنا يدنا منه، وعلمنا أنه يقوم على مبدأ عدم التناقض. وبقي علينا أن نتأمل غير الضروري من هذه العلوم.لقد قال: " وتارة تكتسب بطريق الاستدلال والتعلم". ونحن نعلم أن ما يكتسب بطريق الاستدلال ، يعتمد على الضروري، شأنه شأن الضروري سواء بسواء، وهذا طريق العقل كما لا يخفى. أما ما يكتسب بطريق التعلم، فهو ما يكتسب بطريق الشرع.

بيد انه أشار أيضا، إلى علوم تهجم على القلب، كأنه القي فيه من حيث لا يدري. ثم يقسمها لنا قسمين، سمى الأول إلهاما ونفثا في الروع، وسمى الثاني وحيا وخص به الأنبياء. فكأن العقل والشرع ليسا كل شيء في تحصيل المعرفة، إذ لابد لكل منهما ، أن يمده الهام الهي[27]، إذ وراء طور العقل طور آخر تتضح فيه عين أخرى، يبصر بها الغيب، وما سيكون في المستقبل، وأمورا أخر العقل معزول عنها[28]. وهذا الطور هو طور النبوة.

غير أن هذا التطور ليس وقفا على الأنبياء وحدهم، فقد أعطى الله عباده أنموذجا منه.وهذا الأنموذج هو النوم، الذي يرى فيه النائم ما سيكون من الغيب، إما صريحا، وإما في مثال يكشف عنه التعبير[29].

وعلى هذا يقول الغزالي: فكذلك بان لي على الضرورة، أن أدوية العبادات بحدودها ومقاديرها المحددة المقدرة من جهة الأنبياء الذين أدركوا تلك الخواص بنور النبوة، لا ببضاعة العقل"[30].

معنى هذا، أن أدوية العبادات تحتاج إلى طور أعلى من طور العقل، وهذا الطور هو طور النبوة، التي هي نوع من الكشف ، بل أعلى درجة من درجاته. ولكن الغزالي لا يعتقد هذا بصدد العبادات فقط، بل إن اعتقاده هذا يشمل كثيرا من العلوم التي نسميها علوم طبيعية. يقول: " ودليل إمكانها النبوة- وجودها، ودليل وجودها معارف في العالم لا يتصور أن تنال بالعقل، كعلم الطب والنجوم، فإن من بحث عنها، علم ضرورة أنها لا تدرك إلا بالهام الهي، وتوفيق من جهة الله تعالى، ولا سبيل إليها بالتجربة "[31].

لقد تأثر علماء الغرب بمنهجية الغزالي خاصةً في كتابه: "المنقذ من الضلال"، فهذا من شأنه أنْ يدفعنا للنظر في تراثه، لنستخلص منه المفاهيم المنهجية ونطورها، لا سيما وأنه يدعو للنظر الفاحص والنقد البَنَّاء.

وعلمت يقيناً أنه لا يقف على فساد نوع من العلوم من لا يقف على منتهى ذلك العلم حتى يساوى أعلمهم في أصل ذلك العلم، ثم يزيد عليه ويجاوز درجته، فيطلع على ما لم يطلع عليه صاحب العلم من غور وغائلة، وإذ ذاك يمكن أنْ يكون ما يدعيه من فساده حقاً"[32].

وهنا يضع أبو حامد الغزالي أصولاً للنقد ومنهجية للبحث ، الذي يكون النقد هو الهدف وليس البحث عن الحقيقة، لذلك لا يهم الناقد الوقوف على المصدر الأساس والحرص على دراسته وفحصه، بل يكفي عنده السماع من وساطة أو الوقوف على النص مبتوراً أو التسرُّع في قراءته، ليخرج بعد ذلك على الملأ برؤية كاذبة تسهم في تصدُّع الفكر، وبهتان العلم والعلماء.

ما ذكر يمثل نماذج لرأي الغزالي في العلم وأقسامه، إذ إنَّ مفهوم الغزالي للعلم هو أوسع مجالاً وأقرب إلى المفهوم المعاصر من التصوُّر اليوناني الذي كان سائداً، فتصوُّر أفلاطون للعلم ظَلَّ معلقاً في عالم المثل، يحملق في الماهيات المعقولة للأشياء المطلقة لنماذج عليا للعالم المحسوس. وأما أرسطو فظل العلم عنده قاصراً على عالم الكليّات.

فإننا نجد نبرة جديدة في محاولات الفلاسفة المسلمين في تعريف العلم تعريفاً أوسع مجالاً ومدى من المحاولات اليونانية التي وجدوها مطروحة على الساحة الفكرية، فكانت هنالك محاولات الإشارة إلى العلم الإلهي قسماً منفصلاً للعلم، يعلو على العلم الوضعي الذي هو من اجتهاد البشر ومن تجاربهم. فمنهجية الغزالي في العلم كانت أوسع مجالاً وأكثر أصالةً.

وهكذا وجد الغزالي في الإسلام منهج البحث المؤدي للحقيقة، وهذا ما ساعده على صياغة نظرياته. وهو بذلك يبحث عن الحقيقة بين المناهج الفلسفية و الذوق الباطني و النهج الإسلامي القرآني، وعانى في حقبة من حياته اضطرابا في معرفة الحقيقة وسلامتها، وقد أدان التقليد ثم أنهى به الشك و الحس والعقل في المعارف التي حصل عليها، لينتهي إلى الكشف الذي قاده إلى مرفأ اليقين. ولم يكن شكه شكا نقديا استمراريا لإثبات الوجود وصدق المعرفة، و إنما كان شكه مؤقتا فاصلا بين عهدين، عهد سابق للشك اضطربت فيه نفسه وقلقت روحه وهو يدرس الحكمة و الفلسفة، وعهد لاحق بشكه وهو يجد الاطمئنان والمعرفة في الدين الإسلامي.

نعم، أعطى الغزالي لكل علم مكانته، فهو بذلك كان متوازنا بين مختلف الآراء و المذاهب، وجنب نفسه الحيرة والضلال وفكر فكرة الفيلسوف المتواضع، وتصوف بتصوف صفاء الروح. وكان طبيعيا أن ينسجم منهج الغزالي مع الفكر الإسلامي الشمولي انسجاما كاملا، مادام هذا المفكر الكبير يركز تركيزا أساسيا في كل آرائه وجدله على الانطلاق من المنطق القرآني أولا وقبل كل شيء.

خاتمة:

وأخيرا، هذا رأي الغزالي في قيمة العقل، وهو كما رأينا عاجز في مبدأيه وفي طرائقه، ما لم يمده الله بنور من عنده، يمكنه من الوصول إلى اليقين. أما هذا النور، فليس شيئا آخر سوى الإلهام الإلهي، وهو شبيه بالوحي الذي يتلقاه الأنبياء بطريقة تعاليم الشرع. والعقل والشرع يتحدان في هذا النور، أو الإلهام، أو الوحي، أو الكشف، إذ أن كلا منهما عقل على نحو من الأنحاء.

وإذا كانت هذه قيمة العقل، فما قيمة الفلسفة التي تعتمد عليه، وتقتصر في هذا الاعتماد عليه وحده؟ لاشك أن قيمتها ضئيلة جدا في نظر الغزالي، فالحقيقة متضمنة في الشرع، والفلسفة لا تصل إلى الحقيقة إلا بمقدار ما تقترب من الشرع وتتطابق معه.

إن الغزالي كان مفكرا متنوع الجوانب شمل نشاطه حقولا مختلفة من منطق وجدل وفقه وكلام و فلسفة وتصوف، ومع أنه لم يكن فيلسوفا كالفارابي وابن سينا ولا متكلما كالأشعري ولا فقيها كالشافعي ولا متصوفا كالحارث المحاسبي وأبي طالب المكي إلا أنه اقتبس من هؤلاء جميعا كثيرا من العناصر، وحاول أن يعطي كل شيء حقه. وهذا ما يجعلنا نقول، أن الغزالي لم يكن فيلسوفا، بل متكلما، وإذا هو لجأ إلى أساليب الفلاسفة، ففي سبيل محاربتهم بأسلحتهم.

الهوامش:

1- أحمد الشرباصي- الغزالي و التصوف الإسلامي طبع بمطابع مؤسسة دار الهلال، ص98.
2- أحمد الشرباصي- المرجع السابق، ص73.
3- المرجع نفسه، ص75.
4- أبو حامد الغزالي، الرسالة اللدُّنية، شركة الطباعة الفنية، د.ت. ، ص 99.
5- أبو حامد الغزالي، الرسالة اللدُّنية، مصدر سابق، ص ص 107-110.
6- المصدر نفسه، ص ص 110 -115.
7- أبو حامد الغزالي، ميزان العمل، ط مكتبة الجندي بالحسين، القاهرة، دون تاريخ، ص159.
8- أبو حامد الغزالي، المنقذ من الضلال، تحقيق جميل صليبا، دار الأندلس للطباعة والنشر، بيروت، ط7، 1967 ، ص ص 63-64.
9- المصدر نفسه، ص ص65-66.
10- أبو حامد الغزالي-إحياء علوم الدين-ج1، نشر مكتبة عيسى البابي الحلبي، مصر، ص73.
11- أبو حامد الغزالي، المنقذ من الضلال، مصدر سابق، ص66.
12- المصدر نفسه، ص68.
13- المصدر نفسه، ص106.
14- المصدر نفسه ، ص 69 .
15- المصدر نفسه، ص 68.
16- المصدر نفسه، ص 64.
17- المصدر نفسه، نفس الصفحة .
18- المصدر نفسه، ص 65.
19- المصدر نفسه، ص 66 .
20- المصدر نفسه، ص 64.
21- المصدر نفسه، ص 66 .
22- المصدر نفسه، ص ص 67-68.
23- أبو حامد الغزالي، تهافت الفلاسفة، دار احياء الكتب العربية، 1947 ص 227.
24- المصدرنفسه، ص 228.
25- المصدر نفسه ، ص 232.
26- المصدر نفسه، ص 234.
27- أبو حامد الغزالي ، معيار العلم، نشر محي الدين صبري الكردي، القاهرة، د .ت، ص 105.
28- المصدر نفسه، نفس الصفحة.
29- المصدر نفسه، ص 106.
30- الغزالي، القسطاس المستقيم، المطبعة الكاثوليكية، بيروت 1959، ص ص 42-43.
31- المصدر نفسه، ص21.
32- المصدر نفسه، ص 50.